

الباب السابع

هذه المسائل... والروح

- الروح القدس - المعجزات والكرامات - الإسراء والمعراج - حقيقة النبوة -
- الرؤيا رياضة المتصوفة - بهليل المريدين - السحر - الكهانة - العرافون -
- المنجمون - حساب الحروف وعلم اليازرجة - الحسد - التنويم - العلاج
- النفس بالإيحاء والتنويم.

المراجع

- مقدمة ابن خلدون.
- صور من حياة الرسول (أمين دويدار)
- عالم الروح (مجلة الروح - حسن عبد الوهاب)
- النفس (دكتور على كمال) ط ١ بيروت ١٩٦٧.
- منهج التربية الإسلامية - محمد قطب

الروح القدس (الوحي)

اعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ومحضونهم على هدايتهم ويأخذون بمجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة ، وكان فيما يليقهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق وأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم قال ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني الله . واعلم أن خيرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة ، وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيظ ، كأنها غشى أو إغماء في رأى العين وليست منها في شيء ، وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني يادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم ينزل إلى المدارك البشرية إما بسماع دوى من الكلام فيتفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما حملة من عند الله ، ثم تتخلى تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه قال ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد سئل عن الوحي : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول ، ويدركني في أثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبر عنه .. ففي الحديث كان مما يعانج من التتريل شدة . وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وقال تعالى (إنا سئلك عليك قولاً

ثقيلاً) ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون النبي بالجنون ويقولون له رثى أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما يشاهدون من ظاهر تلك الأحوال : (ومن يضل الله فما له من هاد) . ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والذكاة ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجنبلته ، وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغمسياً عليه حتى استتر بإزاره ، ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل نزهه الله عن ذلك كله حتى أنه يجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة فقد كان ، ﷺ ، لا يقرب البصل والثوم فليل له في ذلك فقال إني أناجي من لا تناجون .

المعجزات والكرامات

ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ، وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور العباد وإنما تقع في غير محل قدرتهم وللناس في كيفية وقوعها ودلائلها على تصديق الأنبياء خلاف ، فالمتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدره الله لا بفعل النبي وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم ، إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ، وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدى بها بإذن الله ، وهو أن يستدل بها النبي ، ﷺ ، قبل وقوعها على صدقه في مدعاه ، فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلائلها حينئذ على الصدق قطعية . فالمعجزة الدالة بمجموع الخارج والتحدى ، ولذلك كان التحدى جزءاً منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها ، وهو أحد ، لأنه معنى الذاتى عندهم والتحدى هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر . إذ لا حاجة فيها إلى التصديق ، فلا وجود للتحدى إلا أن وجد اتفاقاً وإن وقع التحدى في الكرامة عند من يجيزها ، وكانت لها دلالة فإنما هي على الولاية وهي غير النبوة ، ومن هنا منع الأستاذ أبو إسحاق وغيره وقوع الخوارق كرامة فراراً من الالتباس بالنبوة عند التحدى بالولاية ، وقد أريناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي ، فلا لبس على أن النقل عن الأستاذ في ذلك ليس صريحاً ، وربما حمل على إنكار أن تقع خوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارق ، وأما المعتزلة فالمنع من وقوع الكرامة عندهم أن

الخوارق ليست من أفعال العباد ، وأفعالهم معتادة فلا فرق ، وأما وقوعها على يد الكاذب تلبساً فهو محال أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية ، فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذباً ، واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكناً . وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله . وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ، ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الذاتي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب ، والشروط الحادثة مستتدة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار ، وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ، منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين ، والنبي عندهم مجبول على التصرف في الأكوان مهما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك ، والخارق عندهم يقع للنبي كان للتحدي أو لم يكن ، وهو شاهد بصدقه من حيث دلالاته على تصرف النبي في الأكوان الذي هو من خواص النفس النبوية ، لا بأنه ينتزل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لا تكون دلالاتها عندهم قطعية ، كما هي عند المتكلمين ولا يكون التحدي جزءاً من المعجزة ، ولم يصح فارقاً عن السحر والكرامة ، وفارقها عندهم عن السحر أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر . فلا يلم الشر بخوارقه والساحر على الصدق فأفعاله كلها شر ، وفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء ، والنفوذ في الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران في الهواء وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل ، والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء ويأتي النبي بجميع خوارقه ، ولا يقدر

هو على مثل خوارق الأنبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه في طريقتهم ولقنوه عنم أخبرهم وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم ، المنزل على نبينا محمد ﷺ . فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجزة فشاهده في عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله ﷺ ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ، يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثير المصدق والمؤمن وهو التابع والأمة .

الإسراء والمعراج (٢)

لعل الناس لم يختلفوا في شيء قط كما اختلفوا في شأن الإسراء والمعراج ، ولم يتجادلوا في شيء قط كما تجادلوا في أمرهما .. فمن الناس من صدق بها جميعاً ، ومن الناس من كذب بها جميعاً ، ومنهم من صدق بالإسراء وكذب بالمعراج ، ومنهم من قال بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً ، ومنهم من قال بأنه كان بالروح دون الجسد ، ومنهم من قال بأنه كان في اليقظة ومنهم من قال بأنه كان في المنام .

(٢) صور من حياة الرسول - أمين دويدار - دار المعارف - الطبعة الرابعة .

وهكذا لم يزل الناس منذ حدث هذا الحادث العظيم يختلفون فيه ، ولا يزال كل فريق يحاول أن يؤيد رأيه بكل ما يبدو له من الحجج وما يرجح عنده من البراهين . وصدق الله العظيم إذ يقول في شأن هذا الحادث : (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) (٣) .

ولعل السبب في هذا الاختلاف أن الناس يأبون إلا أن يحكموا فيه العقل ولا يرضون بغيره حكماً ، فهل العقل يصلح أن يكون حكماً في هذا الأمر الخطير؟ .. وقيل أن نقرر ما إذا كان العقل يصلح أولاً يصلح أن يكون حكماً في مثل هذا الأمر ، ينبغى لنا أن نعرف ما هو العقل ، وما وظيفته ، وما مقدرته ، وما حدوده ، ومن أين يستمد العقل علمه ومعارفه ؟ .

العقل : هو قوة الفهم في الإنسان ، هو الذي به يستطيع أن يميز ويقدر ، ويقيس ويوازن ، ويستنبط النتائج من مقدماتها ، ويكون الكليات من جزئياتها ويصدر الأحكام على كل ما تمده به الحواس ، فيحكم مثلاً بأن هذا أحمر وهذا أبيض ، وهذا حلو وهذا مر ، وهذا ناعم وهذا خشن ، وهذا طيب وهذا خبيث ، وهذا بعيد وهذا قريب ، وهذا صعب وهذا سهل ، وهذا ممكن وهذا مستحيل .. وهو في كل ما يصدر من هذه الأحكام متأثر بما تمده به الحواس ، فما من حكم يستطيع أن يصدره العقل إلا وللحواس فيه أثر ، إما مباشر وإما غير مباشر . والحواس إنما تستمد معلوماتها من عالم الحس الذي يحيط بها ، ولا تستطيع بحال أن تتجاوز هذا العالم إلى ما وراءه لتستمد منه شيئاً .. فالأذن لا تستطيع أن تسمع إلا ما يصك مسمعاها من الأصوات ، والعين لا تستطيع أن ترى إلا ما يقابلها من المناظر ، والأنف لا يستطيع أن يشم إلا ما يمر به من

(٣) مع بعض تصرف .

الروائح ، واللسان لا يستطيع أن يذوق إلا ما يلمسه من الطعوم ، واليد لا تستطيع أن تمسك إلا ما يقع في قبضتها من الأجسام . وهكذا كل حاسة من الحواس لا تستطيع أن تدرك إلا ما يقع في دائرة حسها من الأشياء ، ثم هي ترسل بهذا الإدراك إلى العقل ، فيفسره العقل بأنه صوت أو منظر أو رائحة أو جسم ، ويحكم عليه بأنه لطيف أو عنيف . جميل أو دميم ، طيب أو خبيث ، كبير أو صغير ، فكل ما يصدره العقل من أحكام إنما هو قائم على ما تدركه الحواس ، وكل ما تدركه الحواس إنما هو مستمد من عالم الحس الذي تعيش فيه ، ولن تستطيع الحواس بأى حال أن تستمد شيئاً من غير هذا العالم . فالسموع والمنظر والمشوم والمذوق والملموس ، لا بد أن تكون كلها واقعة تحت إدراك الحواس ، حتى تستطيع أن تدركها وأن تؤدي بإدراكها هذا إلى العقل الذي يفسره ويصدر حكمه عليه . وتفسير الشيء والحكم عليه هو (الفهم) .

والفهم : هو وظيفة العقل ، وهو فرق ما بين الإنسان والحيوان الأعجم . نستطيع إذن أن نخرج من هذا البيان بنتيجة : هي أن العقل لا يمكن أن يفهم إلا ما تمده به الحواس ، لأن الحواس هي روافده التي تمده بالمعلومات عن كل ما يقع تحت حسها ، وما دامت هذه الروافد عاجزة عن أن تستمد مدركاتها من عالم آخر غير عالم الحس ، فلا يمكن أن توصل إلى العقل علماً من غير علمها .. فهل الكون كله هو عالم الحس وحده ؟ هل الكون كله هو هذه المحسوسات التي نراها بأعيننا ، ونسمعها بأذاننا ، ونذوقها بألسنتنا ونشمها بأنوفنا ، ونلمسها بأيدينا ؟ وبعبارة أخرى : هل نحن في الواقع نرى بأعيننا كل شيء في هذا الكون ، ونسمع بأذاننا كل صوت ، ونشم بأنوفنا كل ريح ، ونلمس بأيدينا كل جسم ؟ لا شك أن هناك أشياء كثيرة لا تدركها حواسنا هذه ،

لأنها إما بعيدة عن مناها ، وإما خارجة عن دائرة إدراكها ، وهي في كلتا الحالتين تعتبر (غيباً) لا نستطيع حواسنا أن تصل إلى إدراكه .

فهل نستطيع إذن أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير موجود ؟
لاشك أننا لا نستطيع أن ندعى ذلك ؟ ولا نستطيع كذلك أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير معقول أن يكون موجوداً ، لأن العقل في هذا المجال لا يستطيع أن يحكم ، إذ الحواس التي يستمد منها معلوماته ، والتي يعتمد على إدراكها لذلك الغيب ، لم تصل بعد إلى ذلك الغيب ، أو هي بطبيعتها لا تستطيع الوصول إليه . فوسائل العلم إذن بهذا الغيب ستظل مفقودة حتى تصل الحواس إلى إدراكه ، فإذا استطاعت الحواس أن تصل إليه فأدركته ، استطاع العقل أن يفهمه ويصدر حكمه عليه ، أما إذا ظلت الحواس عاجزة عن الوصول إليه ، فإن العقل كذلك يظل جاهلاً به ، فلا يستطيع أن يفهمه ولا أن يحكم عليه ، فإذا تصدى للحكم كان حكمه خطأ ، لأنه حكم قائم على غير علم .

ولنضرب لذلك مثلاً من الواقع .. لو أن قائلاً قال للناس قبل مائة عام مثلاً : إن هناك في الكون سرّاً عجبياً ، يكون في بعض الأجسام نوراً ، وفي بعضها قوة ، وفي بعضها حرارة ، وفي بعضها برودة ، وفي بعضها صوتاً ، وفي بعضها صورة ، وأحياناً يكون دواء ناجعاً ، وأحياناً يكون موتاً صاعقاً .. فهل كانوا يصدقونه فيما يقول ؟ وهل كانت عقولهم تؤمن بوجود هذا السر ؟ .. فلما أن كشف العلم سر « الكهرباء » ، ولمس الناس آثارها ، وأدركتها حواسهم على ضوء التجربة والواقع ، صدقوا وآمنت عقولهم بوجود هذا السر . فهل كانت الكهرباء معدومة ثم وجدت حين اكتشافها العلم ؟ .. لا ، بل كانت موجودة في الكون منذ خلق الله الكون ، ولكن العقل لم يكن يعرفها لأن الحواس لم تكن

تدرك آثارها ، فلمّا أدركتها الحواس عرفها العقل ، وكذلك الشأن في كل ما كشف العلم الحديث من أسرار هذا الكون وعجائبه . وقد يمتدّ عجب بعض الناس من أن عمر بن الخطاب نادى وهو على المنبر في المدينة : « يا سارية ، الجبل ، الجبل ، يجذر قائد جيشه بالشام من كمين أعده له العدو وراء الجبل ، فسمع سارية النداء فأخذ حذره من ذلك الكمين ، ولكننا أصبحنا الآن بحيث لا نعجب من مثل هذا . بعد أن كشف العلم لنا ما كشف من أسرار الصوت في الراديو . إذن فهناك في الكون أسرار لم تزل خافية على العقل ، ولا يستطيع العقل أن يحكم بأنها مستحيلة أو ممكنة ، لأنها لم تصل إلى علمه بعد ، أو لأنه غير قادر على أن يصل إلى علمها بوسائله . وأن فيما يكشف العلم لنا من هذه الأسرار لدليلاً على أن هنالك أسراراً لم تكشف لنا بعد ، ولقد يكون ما نجعله من هذه الأسرار أكثر بكثير مما نعلمه ، وصدق الله العظيم إذ يقول :
(وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ويعجبنى في هذا المجال تصوير لأحد العلماء الأجانب شبه فيه العلم أو العقل فيما يكتشفه من أسرار هذا الكون - برجل جلس على شاطئ البحر ، فجعل ينظر إلى البحر مبهوراً بعظمته ، متطلعاً إلى ما فيه من أسرار ، فبينما هو كذلك إذ قذف البحر له سمكة ، فصاح مسروراً : لا شك أن في هذا البحر سمكاً . ثم قذف البحر له مرجانة ، فصاح مبتهجاً : ولا شك أن فيه مرجاناً . ثم قذف البحر له لؤلؤة ، ففرفرف فيه لؤلؤاً كذلك ... وهكذا ، كلما رمى البحر له شيئاً ظن أنه كشف سرّاً من أسرار هذا البحر . لكن هل يستطيع أن يحيط بكل ما في البحر من أسرار ؟ لا شك أنه لا يستطيع ، ولو قضى عمره على شاطئ البحر .. وهو تشبيه صادق وتصوير بليغ لموقف العقل من أسرار هذا الكون .

نستطيع أن نصل من هذا إلى نتيجة أخرى ، هي أن العقل لم يحيط بكل ما في الكون من أسرار ، وأنه مادام لا يستطيع أن يحيط إلا بما تمده به الحواس ، فإن حكمه على ما لا سبيل للحواس إليه ، إنما هو رجم بالغيب وخبط في الظلام ، وما دام الأمر كذلك فكل ما لا تدركه الحواس لا يمكن أن يحكم فيه العقل . والحواس بطبيعتها مادية لا تدرك إلا ما تحسه من عالم المادة ، أما ما وراء عالم المادة - وهو عالم الغيب - فإنها لا يمكن أن تدرك منه شيئاً فلم العقل بما وراء المادة عن طريق الحواس أمر غير ممكن ، وحكمه عليه لا يمكن أن يكون صادقاً أبداً . ومن أجل هذا كان العقل غير صالح لأن يحكم في مسألة (الإسراء والمعراج) لأنها من عالم الغيب الذي لا تدركه الحواس .

من أى طريق - إذن - يأتي للعقل علم ما وراء المادة ؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا من طريق (السمع) .. من طريق السمع وحده لا من طريق غيره ، وذلك بأن يتلقى الخبر عنه من صادق أمين ، له قدرة على الاتصال بما وراء المادة ، أى (بعالم الغيب) . وهذا لا يتأتى إلا للأنبياء والرسل ، والأنبياء والرسل صادقون فيما يبلغون من هذه الأخبار ، لأنهم يتلقونها بطريق الوحي الإلهي عن الله وهو أصدق القائلين . فليس هنا مجال للشك في صدق الحقيقة التي يخبر بها الرسل والأنبياء عن عالم الغيب ، وليس للعقل أن يقول في هذا المجال شيئاً ، لأنه خارج عن نطاق إدراكه .

وربما ظن بعض الناس أن العلم بما وصل إليه من الوسائل الحديثة يستطيع أو يمكن الاستعانة به أو الاعتماد عليه في علم ما وراء المادة . ولكن العلم الحديث بكل وسائله لا يستطيع ذلك ، لأن وسائله كلها مادية قائمة على التجربة والملاحظة ، وهما لا تقومان إلا على ما تدركه الحواس ، والحواس بطبيعتها لا تدرك ما وراء المادة .

فالسَّمْع - إذن - هو وحده الطريق الذى يستمد العقل منه معلوماته عما وراء المادة ، أو عن عالم الغيب وما فيه من الجنة والنار ، والملائكة والجن ، والحشر والحساب ، وما إلى ذلك من (السَّمْعِيَّات) التى لا يمكن أن تأتينا أخبارها إلا من طريق السَّمْع وحده .

(والإِسْرَاء والمعراج) من هذه السَّمْعِيَّات .. فليس للعقل مجال فى الحكم عليهما بالصدق أو بالكذب ، وبالجواز أو بالاستحالة . لأنها غير داخِلين فى نطاق علمه ، فإذا تصدى للحكم عليهما فقد تصدى للحكم فيما ليس له به علم .

فليس للعقل - إذن - إلا التصديق بما ورد عنها على لسان الصادق الأمين ، وهو رسول الله ، ﷺ . وليس له أن يسأل عن إمكان ذلك أو كيفيته ، لأن ذلك شيء ليس فى طاقة العقل أن يفهمه ، لأنه من عالم الغيب الذى لا يدخل فى دائرة إدراكه . أما الذى يستطيع العقل أن يسأل عنه فهو الحكمة فى ذلك الإسراء والمعراج .

أما حكمة الإسراء فقد أجملها الله سبحانه فى قوله : (لزيه من آياتنا) ، وذلك حيث يقول عز وجل فى سورة الإسراء : (سبحانه الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لزيه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . وأما حكمة المعراج فقد أجملها الله سبحانه فى قوله : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، وذلك حيث يقول عز وجل من سورة النجم : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدره المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .. وذلك فى رأى من يقول بأن هذه الآيات نزلت فى شأن المعراج . فالغرض الذى كان من أجله الإسراء وكان من أجله المعراج ، هو أن يرى

الله رسوله ما شاء من آيات قدرته ، وعجائب صنعه ، وعظيم ملكه ، ليطمئن قلبه ، وتستنير بصيرته ، ويزداد يقينه .

ويقول العلماء : إن المعرفة درجات ثلاث علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين . فعلم اليقين هو المعرفة التي تقوم على الخبر الصادق ، وعين اليقين هو المعرفة التي تقوم على المشاهدة ، وحق اليقين هو المعرفة التي تقوم على التجربة والممارسة .. فأنت إذا سمعت عن بلد من البلاد من أمين صادق لا تشك في خبره ، فذلك علم اليقين ، فإذا أنت رأيت هذا البلد بعينيك ، فذلك عين اليقين ، فإذا أنت عشت في هذا البلد فعاشرت أهله وعرفت أموره ودرست أحواله ، فذلك حق اليقين . كذلك إذا سمعت عن شخص ، ثم رأيت ، ثم رأته ، ثم خالطته وجربته ، فقد تدرجت في المعرفة به درجة بعد درجة ، من علم اليقين ، إلى عين اليقين إلى حق اليقين ، وهي الدرجة التي ليس بعدها درجة في العلم ولا في المعرفة .

والرسل والأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم قد تلقوا عن الله تعالى السمعيات ، أو أنباء عالم الغيب ، بإيمان وتصديق ويقين لا يقبل الشك ، ولكن منهم من استشرف إلى الترقى في المعرفة من درجة (علم اليقين) إلى درجة (عين اليقين) ، فقد حكى الله عن نبيه عزير أنه (مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أئي يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ^(٤) وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ^(٥)) ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء

(٤) لم تغيره السين .

(٥) نعيد تركيبها ونضعها في مواضعها .

قديراً) .. وحكى عن خليله إبراهيم أنه قال : (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك (٦) ثم اجعل على كل جيل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم) .. وحكى عن رسوله موسى أنه قال : (رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً (٧) فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) . . .

ومحمد ، ﷺ ، سيد الأنبياء وخاتم الرسل ، وأكرم خلق الله على الله ، فكان من كرامته - سبحانه - أن خصه بتلك الرحلة الملكوتية العجيبة ، ليريه من آياته ما استشرف غيره إلى رؤية بعضه ، ليرقى به من منزلة (علم اليقين) إلى منزلة (عين اليقين) . فكان ﷺ هو الرسول الوحيد الذي يخبر أمته بخبر السمعيات وما وراء المادة عن عيان ومشاهدة ، لا عن مجرد الخبر السماوي فحسب . ولذا كان عليه الصلاة والسلام واضح البيان في تعليمه ، يكثر من التشبيهات وضرب الأمثال وأنواع الاستعارة ، ليقدم للناس تلك الحقائق الكونية الخفية ، مصورة بصورة ما يشبهها من الأمور الواقعية المعهودة . وتلك منزلة من سمع ورأى ، لا من سمع فقط .

« ولقد كان الوحي يتزل عليه بخبر تلك الحقائق والآيات الغيبية ، فيخبر مثلاً عن الذين يأكلون الربا بأنهم (لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه

٥ سورة البقرة : ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٦) أي اجمعهن في يدك لتستوتق من حياتهن .

(٧) سقط صريعاً من هول ما رأى .

٥٥ سورة الأعراف : ١٤٣ .

الشیطان من المس) ، وعن الذين يأكلون أموال الیتامی ظلماً بأنهم (إنما يأكلون فی بطونهم ناراً) ، ويخبر عن آل فرعون فی حياة البرزخ بقوله : (النار يعرضون علیها غدواً وعشياً) . وهكذا وهكذا مما نزل به الوحی علی قلبه ، ﷺ . وتلك معارف جلیلة كان يستشرف لرؤيتها أكابر الأنبياء والرسل ، ويتشوفون إلى درجة فی المعرفة أعلى من الدرجة التي هم علیها . ولا شك أن رسول الله ، ﷺ ، كان يتشرف كما يتشرفون ، ولكنه لم يطلب من الله كما طلب غيره ، تأديباً معه ، سبحانه ، وحياء منه ، فأكرمه الله ، سبحانه ، بتلك الرحلة ، ليريه من آياته ما يشاء ، ويطلعه من عجائب كونه علی ما يريد ، وليفضي إليه بما يشاء من أسرار جل شأنه * .

ولقد يحلو لبعض المعاصرين منا أن يشبه ذلك بما يحدث الآن فی الدول الكبرى ، حيث تستدعى الدولة سفیرها فتفضي إليه بما تشاء من أسرارها الخطيرة ، وترسم له الخطة كما ينبغی أن تكون . وهو مترع شعری جميل ، ولكنه تشبيه مع الفارق العظيم ، « والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » .

وهنا يستشكل الأمر علی بعض الناس فيقولون : وهل الله ، عز وجل مكان يعرج إليه فيه رسوله ؟ .. فقد نستطيع أن نسلم بأن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ممكن ، لأننا الآن نرى الطيارات تقطع هذه الرحلة ذهاباً وإياباً فی بضع ساعات ، وقد نستطيع أن نسلم بأن رسول الله عرج به إلى السماء ، لما نراه الآن من محاولات العلم الحديث فی الوصول إلى الكواكب ، وقد نستطيع كذلك أن نسلم بأن ما رآه رسول الله من حياة البرزخ^(٨) . ومن صور الأعمال ،

٥ منبر الإسلام عدد رجب ١٣٧٤ : مقال للأستاذ البهي الخولي مع بعض تصرف .

(٨) البرزخ .. هو فترة ما بين الموت والنشور ، وهو الفترة التي يقضيها الموتى فی قبورهم حتى يبعثوا

يوم القيامة .

ومن عجائب الكون حق ، لأن خبره صادق لا يقبل الشك ولكن كيف نستطيع أن نسلم بمثوله في حضرة ربه ذى الجلال ، عند سدره المنتهى ؟ أليس معنى هذا أن الله ، جل جلاله ، مكاناً ، وأنه - سبحانه - في السماء السابعة أوفياً وراءها ؟ والأمر في حقيقته غير مشكل ؟ ولكننا نحن الذين أشكلناه على أنفسنا ، لأننا أخضعناه لمدركاتنا الحسية ، وحكنا فيه العقل الذى ليس من شأنه أن يحكم في مثل هذا الأمر . فالله ، سبحانه وتعالى ليس بعيداً عن رسوله حتى يقطع لقاءه هذه الأبعاد الشاسعة في السموات العلى ، بل هو معه حيثما كان وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، بل هو قريب من عباده جميعاً ، يسمعهم إذا دعوا ، ويحييهم إذا سألوا ، ويكون معهم أينما كانوا : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) * والذى يقول لرسوله : (وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) ** وقد نهى رسول الله ، ﷺ ، المؤمنين أن يبالغوا في رفع أصواتهم ، حين رأى جماعة منهم يجأرون بالتكبير يوم خيبر ، فقال : « أربعوا على أنفسكم ^(٩) ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم .

فلم يكن الغرض من العروج - إذن - أن يلتقى محمد ﷺ ربه في مكان بعيد ، إنما كان ذلك ليرى من ملكوت الله ما شاء الله أن يرى ، وليطلع من عجائب صنعه على ما شاء الله أن يطلع ، وليشهد من سعة ملك الله وجلال سلطانه وعظيم قدرته ما يزيده يقيناً على يقين ، وإيماناً على إيمان ، وليستشعر

• سورة المجادلة : ٧

•• سورة البقرة : ١٨٦ .

(٩) أى ارفقوا بأنفسكم ولا تبالغوا في رفع أصواتكم .

المتزلة الكريمة والدرجة الرفيعة التي أعدها له ربه .. وإلا ، فقد كان فيما يوحى إليه ربه على لسان أمينه جبريل كفاية وغناء .

على أن العلم لم يكشف بعد حقيقة السموات ، ولا يزال من أمرها يخبط في متاهة عمياء على رغم ما بلغه من تقدم وما بذله من جهود .. يقول الأستاذ حنفي أحمد في كتابه « معجزة القرآن في وصف الكائنات » ص ٥٠ : إن استعمال المراقب الحديثة في الكشف قد أثبت بما لا يقبل الشك أن المجموعة الشمسية التي تتكون من الشمس وتوابعها من السيارات التي تدور حولها .. تسبح في حشد عظيم من النجوم ، تظهر في صورة نقط صغيرة من الضوء متميز بعضها عن بعض ، وأن هذه المجموعات تعرف الآن باسم (السديم أو مجموعة المجرة) .. وأن هناك - عدا هذه الآلاف المؤلفة من النجوم التي ترى في المجرة - أجساماً أخرى ترى على هيئة سحب مضيئة قليلاً ، ولكن لا تظهر فيها نقط متميزة ، وقد أطلق عليها اسم (الجزائر الكونية) ، وهي السدم العظمى أو المجرات الخارجية ، وهي عبارة عن حشود هائلة من النجوم لم تستطع المراقب الحديثة توضيحها على رغم ما بلغت من قوة^(١٠) ، نظراً لأبعادها الساحقة ، وقد دلت المشاهدات الدقيقة على وجود ملايين من هذه المجرات الخارجية منتشرة في الفضاء .. في طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر مليوناً ونصف مليون من السنين الضوئية ، أى بمقدار مسافة يقطعها الضوء في مليون ونصف مليون من هذه السنين ، على حين هو يقطع في السنة الواحدة نحو ستة ملايين مليون من الأميال^(١١) .

(١٠) بلغت قوة مرصد « مونت ولسن » بأمريكا أن تدخل في العين من الشعاع ٢٥٠ ألف مرة قدر ما تدخله العين البشرية .

(١١) تبلغ سرعة الضوء في الثانية الواحدة نحو ١٨٦ ألفاً من الأميال .

ثم يقول في ص ٥٤ : وقد دل الحساب الرياضى من المشاهدات الدقيقة على أن أبعاد المجرات الخارجية عن المجرة مذهلة ، إذ وجد أن أقربها - ويدعى (سديم أندرو ميذا العظيم) يبعد عنها بنحو ٦٨٠ ألف سنة ضوئية ، أى بنحو سبع مرات قدر قطرها ، ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين ، ثم عشرات الملايين ، ثم مئات الملايين من السنين الضوئية .

ثم يقول بعد ذلك في ص ٦٢ : وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطيفى للمجرات الخارجية .. على أنها تتباعد عنا كما يتباعد بعضها عن بعض باستمرار ، وبسرعات عظيمة جداً تقدر بالآف الأميال فى الثانية الواحدة ، فاستدلوا بمجراتها على أن الفضاء بين المجرات يتمدد ويتسع باستمرار . ويقول السير جيتز : إنهم قدروا هذا التمدد بنحو مائة وخمسة أميال فى الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية ، وأن حجم الفضاء العالمى الآن يبلغ عشرة أمثال حجمه منذ بدأ تمدده ، أى أن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف قدره الأسمى .

ويؤكد الأستاذ حنى أحمد فى ص ٥٤ - على لسان السير جيتز العالم الفلكى الإنجليزى - « أن الخطأ المحتمل فى تقدير الأبعاد العظيمة للأجرام السماوية وبالطرق المعتمدة لا يزيد على عشرة فى المائة » .

هكذا يقول العلم ، أو هكذا تقول التجارب التى قام بها العلم حتى الآن . فإذا نحن سايرنا العلم فى نظرياته فماذا عسى أن تكون سعة هذا الكون العجيب ، وأين تبدأ حدوده وأين تنتهى ؟ وأين تقع السموات السبع من هذه العوالم التى لا يدرك العقل كنهها ، ولا يعرف العلم مداها ؟ وكيف يكون الصعود فيها ، وكيف يكون الهبوط ، وكيف يكون الاستواء ؟ أليس الأمر - إذن - أوسع من أن يحده العلم ، وأعظم من أن يحكم فيه العقل ، وأعمق من أن تحيط به

الأفهام؟ ف (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون .. وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون) (١٢) .

ويعد ، فقد وقع الإسراء والمعراج فيما بين السنة العاشرة والحادية عشرة من البعثة ، وهى الفترة التى يئس فيها رسول الله من إيمان قريش ، فذهب إلى نقيف فردته أقبح رد ، فعاد مكلوم الفؤاد واهن القوة ، يضرع إلى الله ويستعينه ، ويشكو إليه ما يلاقى من صدود الناس عنه وسخرهم به وجراتهم عليه ، فلعله كان من تطمين الله له ومن رحمته به أن هياً له هذه الرحلة الملكوتية ، ليطمئن قلبه ، وليعلم أنه بعين الله دائماً أبداً ، وأن الله لن يتخلى عنه ولن يخلفه ما وعده من النصر ، وإن تراكمت أمامه العقبات ، واحلولكت حوله الظلمات .

لقد كان الإسراء رحلة مباركة فى الأرض ، بين المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل ، والمسجد الأقصى الذى بناه داود وسليمان ، وهما البيتان اللذان باركها الله تعالى وبارك ما حولها ، فكانا مقر عبادة الله وتوحيده ، وكانا مهبط الوحي على رسله وأنبيائه . وقد مر ، ﷺ ، فى رحلته هذه بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى ، عليه السلام ، وهى (طورسينا) فصلى بها ركعتين ، ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام ، وهى (بيت لحم) فصلى بها ركعتين ، ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى حشد من الأنبياء والرسل ، فصلى بهم جميعاً ثم عرج به إلى السماء ، فرأى من آيات ربه الكبرى ما شاء الله أن يرى .

وقد فصلت الأحاديث بعض ما رأى من هذه الآيات ، فقد رأى ﷺ

(١٢) سورة الزخرف : ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ .

حياة (البرزخ) وهى فترة ما بين الموت وقيام الساعة ، فرأى الأنبياء ، صلوات الله عليهم . ورأى منازلهم ودرجاتهم ، ورأى نفوس بنى آدم بعد موتها ، يتلقاها آدم أبو البشر فيفرح بطيها ويحزن لخبيثها .. ورأى حقائق الأعمال مصورة فى صورها المحسوسة كما أراد الله أن تكون ، فرأى آل فرعون ومن على شاكلتهم من الطغاة والظلمة ، يعرضون على النار غدواً وعشيا ، ورأى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، لهم مشافر كمشافر الإبل ، وبأيديهم قطع من النار كالحجارة يقدفونها فى أفواههم فتهى إلى بطونهم ، ورأى الذين يأكلون الربا يوظفون بالأقدام فلا يستطيعون القيام ، كلما هموا لينهضوا سقطوا ، ورأى الزناة يتركون لحمًا طيباً سميناً ، ويأكلون لحمًا متناً خبيثاً ، ورأى اللاتي يدخلن على أزواجهن غير أولادهم معلقات بثديين ، ورأى الذين يفتابون الناس ويقعون فى أعراضهم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم . . ورأى الجنة والنار ووعد الآخرة ، ورأى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، ورأى غير ذلك من آيات الله وعجائب قدرته ، مما لم يكن يتسنى لأحد أن يراه إلا أن يكون من سمو الروح وصدق اليقين فى الدرجة التى كان هو ، صلى الله عليه وسلم ، فيها .. وتلك درجة رفيعة ، ومترلة خصه الله تعالى بها دون سائر خلقه ، ودون سائر أنبيائه ورسله الذين هم صفوة خلقه جميعاً .

وفى حضرة القدس الأعلى فرضت عليه الصلاة ، ولعلها كانت هى السر العظيم الذى أفضى به الملك الجليل إلى عبده ورسوله ، فإن الصلاة هى الصلة الدائمة بين العبد وربّه ، وهى لب العبادة وجوهرها ، وعاد الدين وركازه . ثم عاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فأخبر بما كان من أمره فى تلك الليلة المباركة ، فكذبتة قريش ، واستفظع الناس الخبر حتى افتتن به بعض من آمن ، أما الذين رسخت عقيدتهم وصدق إيمانهم فلم يروا فى الأمر عجباً ، فهذا الوحي يتزل

عليه من السماء كل يوم ، فأى فرق بين أن ينزل عليه جبريل بالوحي ، وبين أن يذهب به إلى حيث شاء الله أن يذهب ، ليتلقى من الوحي ما شاء الله أن يلقى إليه ، وليرى ما شاء الله له أن يرى .

وهكذا كان الحادث فتنة للناس ، تبين به إيمان الصادقين وغير الصادقين ، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله أن يكون ، يخوضون في شأن (الإسراء والمعراج) فمنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن بالحكم فيما ليس له به علم . ولو أنهم وقفوا بالعقل عند حدوده ، وأبعده عما ليس من شأنه ، لما كان في الأمر لبس ولا إشكال . وصدق الله العظيم إذ يقول : (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (١٣) .

حقيقة النبوة

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ، ثم نذكر حقيقة الكهانة ، ثم الرؤيا ، ثم شأن العرافين ، وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول :
اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تنقضى عجائبه في ذلك ولا تنتهى غاياته ، وابدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثائي ، وأولاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى السماء ، ثم إلى الهواء ، ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض ، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً أو هابطاً ، ويستحيل بعض الأوقات ، والصاعد منها ألطف مما قبله إلى

(١٣) سورة آل عمران : ٦٦ .

أن ينتهى إلى عالم الأفلاك ، وهو اللطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض ، على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط ، وبها يهتدى بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها ، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ، ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتداءً من المعادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان على هيئة بدیعة من التدرج ، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش وما لا بذر له ، وآخر أفق النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الخبز والصدف ، ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر ، والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذى اجتمع فيه الحس والإدراك ولم يتنه إلى الروية والفكر بالفعل ، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا . ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة ، ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر ، وفي عالم التكوين آثار من حركة الخلق والإدراك ، تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبيناً للأجسام . فهو روحانى ويتصل بالمكونات لوجوب اتصال هذا العالم في وجودها ، وذلك هو النفس المدركة والحركة ، ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً ، ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً وهو عالم الملائكة ، فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ، ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لحظة من اللحظات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ، ويكون لها اتصال بالأفق الذى بعدها شأن الموجودات المرتبة ، كما قدمناه فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل هي متصلة بالبدن من أسفل منها ،

ومكتسبة به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلوية والغيبية ، فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان ، وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض . ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس وقواها . أما الفاعلية فالبطش باليد ، والمشي بالرجل ، والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعا . وأما المدركة وإن كانت قوى الإدراك مرتبة ومرتقية إلى القوة العليا منها ، ومن الفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرهما يرتقى إلى الباطن ، وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لأن المحسوسات لا تزدهم عليها في الوقت الواحد ، ثم يؤديه الحس المشترك في الخيال وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس ، كما هو مجرداً عن المواد الخارجة فقط ، وآلة هاتين القوتين في تصرفها البطن الأول من الدماغ مقدمة للأولى ومؤخرة للثانية ، ثم يرتقى الخيال إلى الواهمة والحافظة فالواهمة لإدراك المعاني المتعلقة بالشخصيات ، كعداوة زيد وصداقة عمرو ، ورحمة الأب واقتراس الذئب . والحافظة لإبداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة ، وهي لها كالحزائنة تحفظها لوقت الحاجة إليها . وآلة هاتين القوتين في تصرفها البطن المؤخر من الدماغ ، أوله للأولى ومؤخره للأخرى ، ثم ترتقى جميعها إلى قوة الفكر وآلته البطن الأوسط من الدماغ ، وهي القوة التي يقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل ، فتحرك النفس بها دائماً لما ركب فيها من التزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية ، وتخرج إلى الفعل في تعقلها متشبهة بالملا الأعلى الروحاني ،

وتصير في أول مراتب الروحانيات في إدراكها بغير الآلات الجسمانية . فهي متحركة دائماً ومتوجهة نحو ذلك ، وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب ، بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى في ذلك . والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني ، فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى ، نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة ، وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي متحصر نطاقه ، إذ هو من جهة مبدئه ينتهي إلى الأوليات ولا يتجاوزها ، وإن فسد فسد ما بعدها ، وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم . وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية ، بما جعل فيه من الاستعداد لذلك ، فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري ، ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية ، وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهائها ، وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ . وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، ليصير في لحظة من اللحظات ملكاً بالفعل وحصل له شهود الملائكة الأعلى في أفقهم ، وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللحظة ، وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحظة ، وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها ، وجبلة صورهم فيها ونزههم عن مواد البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي

يحاذون بها تلك الوجهة ، وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك
الوجهة وتسيغ نحوها ، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ
متى شاءوا ، بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا بصناعة ، فلذا
توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملاً الأعلى ما يتلقونه ، وعرجوا
به على المدارك البشرية منزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد ، فتارة يسمع دويّاً
كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه ، فلا ينقضى الدوى إلا وقد
وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي إليه فيكلمه ويعي ما يقوله ، والتلقى
من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كله كأنه في لحظة
واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس في زمان ، بل كلها تقع جميعاً .
فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحياً لأن الوحي في اللغة الإسراع . (واعلم)
أن الأولى وهي حالة الدوى هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه ،
والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك
كانت أكمل من الأولى وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي ، ﷺ ،
الوحي لما سأله الحارث بن هشام ، وقال كيف يأتيك الوحي فقال : أحياناً
يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال ،
وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول وإنما كانت الأولى أشد ،
لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر ،
ولذلك لما عرج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه ،
وعندما يتكرر الوحي ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال ، فعندما يعرج إلى
المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها ، وهو إدراك
البصر ، وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة
المضارع لطيفة من البلاغة وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي

فمثل الحالة الأولى بالدوى الذى هو فى المتعارف غير كلام ، وأخبر أن الفهم والوعى يتبعه غب انقضائه ، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن نوعى بالماضى المطابق للانقضاء والانقطاع ، ومثل الملك الحالة الثانية برجل بخاطب ويتكلم ، والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع المقتضى لتجدد . واعلم أن فى حالة الوعى كلها صعوبة على الجملة وشدة فقد أشار إليها لقرآن قال تعالى (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) وقالت عائشة كان مما يعانى من لتزير شدة ، وقالت كان ينزل عليه الوعى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه إن جبينه ليتفصد عرقاً ، ولذلك كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة الغليظة ما هو معروف ، وسبب ذلك أن الوعى كما قرناه ، مفارقة البشرية لى المدارك الملكية وتلقى كلام النفس ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات اتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر ، وهذا هو معنى الغط الذى عبر به فى مبدأ الوعى فى قوله فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى .

قال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . وكذا ثانية ، وثالثة ، كما فى الحديث وقد نضى الاعتياد بالتدرج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ، لذلك كان تنزل القرآن وسوره وآيه منجماً حين كان بمكة أقصر منها هو بالمدينة . وانظر إلى ما نقل فى نزول سورة براءة فى غزوة تبوك وأنها نزلت لها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة يتزل عليه بعض سورة من قصار للفصل فى وقت ويتزل الباقي فى حين آخر . وكذلك كان آخر انزل بالمدينة آية الدين ، وهى ما هى فى الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة لى آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها ، واعتبر من لك علامة تميزها بين المكى والمدنى من السور والآيات والله المرشد للصواب

ذا محصل أمر النبوة .

الرؤيا

وأما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحّة من صور
الواقعات فإنها عندما تكون روحانية ، تكون صور الواقعات فيها موجودة
بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن
المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، وقد يقع لها ذلك لمحّة بسبب النوم كما نذكر ،
فتقتبس بها علم ما تشوف إليه من الأمور المستقبلية وتعود به إلى مداركها ، فإن
كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج
من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير ، وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن
المحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه
اللمحة للنفس أنها ذات روحانية مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها
تعلقاً محضاً ، ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير
شيء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل
الأفق الأعلى الذين لم يستكملوا ذاتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره ، فهذا
الاستعداد حاصل لها مادامت في البدن ، ومنه خاص كالذي للأولياء ومنه عام
للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا . وأما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من
البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات ، ويخرج هذا الاستعداد
فيهم متكرراً في حالات الوحي وهو عندما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها
مايقع من الإدراك شبيهاً بحال النوم شبيهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه
بكثير . فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً
من النبوة ، وفي رواية ثلاثة وأربعون ، وفي رواية سبعون . وليس العدد في

جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين في بعض طرقة وهو للتكثير عند العرب . وما ذهب إليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر ، وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين ، فكلام بعيد من التحقيق ، لأنه إنما وقع ذلك للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ، مع أن ذلك يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطرى لهم صلوات الله عليهم . إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عاماً في البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ، ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذى هو جبلى لهم ، فتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تشوف إليه في عالم الحق ، فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ، ولذلك جعلها الشارع من الميسرات فقال لم يبق من النبوة إلا الميسرات ، قالوا وما الميسرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له (وأما) سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك ، وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى ، وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما فى كتب التشريح (لجالينوس) وغيره ، وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق فيعطى الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من برده وتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به لما اقتضته حكمة

التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ، ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية صار محلاً لآثار الذات الميانية له في جسمانيته ، وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطة ، وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر ، وهو بالحواس الخمس . وإدراك بالباطن ، وهو بالقوى الدماغية ، وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها ، من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ، ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتفشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة ، وإنما يكون ذلك بانحناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه إلى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشبعة مركبها ، وهو الروح الحيواني إلى الباطن ، ولذلك كان النوم للبشر في الغالب وإنما هو بالليل ، فإذا انحنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية ، وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً ، ثم بنزها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة ، وربما التفقت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحاني ، لأنها مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي

أضغاث أحلام (وفي الصحيح) أن النبي ﷺ ، قال : الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان . وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجلى من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا . وما يسببها ويشيعها من النوم وهى خواص النفس الإنسانية موجودة فى البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الإنسان رأى فى نومه ما صدر له فى يقظته مراراً غير واحدة ، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب فى النوم ولا بد وإذا جاز ذلك فى عالم النوم فلا يمتنع فى غيره من الأحوال لأن الذات المدركة واحدة وخواصها عامة فى كل حال ، والله الهادى إلى الحسنى بمنه وفضله .

رياضة المتصوفة

وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعربية عن هذه المقاصد المذمومة ، وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ، ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ، ويزيدون فى رياضتهم إلى الجمع والجوع . التغذية بالذكر فيها تتم وجهتهم فى هذه الرياضة ، لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله ، وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة ، إنما هو بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول الأمر ، لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله ، وإنما هى لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفقة ، فإنها فى الحقيقة شرك قال بعضهم من أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى^(١)، فهم

(١) أى قصد غير الله.

يقصدون بوجهتهم المعبود لا شيء سواه ، وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم، وكثير منهم يفرُّ منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغتيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا ، وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكبر في حقهم . وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذان أبو إسحاق الاسفراييني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها ، والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدى فهو كاف ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : إن فيكم محدثين ، وإن منهم عمر ، وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضى الله عنه يا سارية الجبل ، وهو سارية من زنيم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك ، وهم بالانزمام ، وكان بقره جبل يتحيز إليه فرفع لعمر ذلك وهو يخضب على المنبر بالمدينة فتاداه يا سارية الجبل. وسمعه سارية وهو بمكانه ، ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة ، ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته رضى الله عنها في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديثه ، ثم نهىها على جذاذه لتحوزه عن الورثة ، فقال في سياق كلامه وإنما هما أخواك وأختاك ، فقالت : إنما هي أسماء فمن الأخرى ، فقال : إن ذا بطن بنت المارجة أراها جارية فكانت جارية وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من التحل ، ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء ، إلا أن أهل التصوف يقولون إنه بقل في زمن النبوة إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى أنهم يقولون إن المرید إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق .

بهايل المريدين

ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهايل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء ، وهم مع ذلك قد صححت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق ، مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب ، لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب ، وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم . والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط ، فإن الله يؤتبه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها . وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين . وإنما فقد لهم العقل الذى يناط به التكليف ، وهى صفة خاصة للنفس ، وهى علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله ، وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر فى قبول التكاليف لإصلاح معاده ، وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ، ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجوداً لحقيقة معدوم العقل التكليفي الذى هو معرفة المعاش ، ولا استحالة فى ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكاليف ، وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ، ويلتحقون بالبهائم ولك فى تمييزهم علامات منها : أن هؤلاء البهايل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها أصلاً من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف ، والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلاً . ومنها أنهم يخلقون

حقيقة الإنسان - ٤

على البله من أول نشأتهم ، والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بديية طبيعية ، فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخنية ومنها كثرة تصرفهم فى الناس بالخير والشر ، لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدم التكليف فى حقهم ، والمجانين لا تصرف لهم والله المرشد للصواب .

السحر وتفسيره فى تفاسير القرآن

وردت كلمة السحر فى القرآن ستين مرة ويمكن لمن يريد حصرها الرجوع إلى معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد قواد عبد الباقي مادة (سحر) . ويقول المفسرون لسورة البقرة إن اليهود عارضوا الرسول ﷺ : بالتوراة . فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت . وقديماً ألقى الشياطين إلى بنى آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر واستسخر الطير كان سحراً .

والسحر قيل أصله : التويه بالحيل والتخايل وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعان ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هى به ، كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب القطار المتحرك حقيقة حين يخيل إليه أن ما حوله من الأشجار والجبال تسير معه .

وقيل : إن أحداً له الاستمالة وكل من استمالك فقد سحرك . وقال الجوهري : السحر الأخذ . وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر .

والساحر . العالم ، وسحره أيضا بمعنى خدعه . وقال ابن مسعود ، كنا نسمى السحر فى الجاهلية العضة . والعضة عند العرب : شدة الهت وتمويه الكذب .

وفي (عيون المعاني) ذكر الفرنوي الحنفي : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل لها ، وعند الشافعي وسوسة وأمراض ، وقال : وعندنا أصله طلسم بيني عند تأثير خصائص الكواكب ، كآثار الشمس في زئبق عصي فرعون ، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ما عسر ، وعند القرطبي أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء ، ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ، والشعوذي : البريد لخفة سيره . قال ابن فارس في المجمل : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهي خفة في اليدين وأخذة كالسحر ، ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورق من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ، ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

وقد سمي رسول الله ﷺ ، الفصاحة في الكلام واللسانة فيه سحراً . فقال : « إن من البيان لسحرا » : أخرجه مالك ، وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى ليثورهم السامع أنه عين الحق ، أي أن الرجل يكون عليه الحق ، ولكنه الحق بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه . ومن السحر ما يكون كفراً من صاحبه مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم في هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر في ليلة والطيران في الهواء . فكل من فعل ليوهم الناس أنه محق . فذلك كفر منه . قال القشيري . قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يقلب الحيوان من صورة إلى صورة أو يقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها ، فهو كافر يدعى القدرة على الإتيان بمثل آياتهم ومعجزاتهم .

وذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة ، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترأبادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخيل وإيهام ، لكون الشيء على ما هو به وأنه ضرب من الخفة

والشعوذة كما قال تعالى : (يُخِيل إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى) ولم يقل تسعى على الحقيقة ولكن قال : يُخِيل إِلَيْهِ .

وقال أيضاً : (سحروا أعين الناس) وهذا لا حجة فيه ، لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر ، لكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع . فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس فدل على أن له حقيقة ، وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون : (وجاءوا بسحر عظيم) وما ذكرناه سابقاً من سحر لبيد بن الأعصم للرسول .

ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبي الأعمش عن عكرمة عن ابن عباس قال : علم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها (الفرقا) فمن كذب به فهو كافر ، مكذب لله ورسوله ، منكر لما علم مشاهدة وعياناً .

قال علماؤنا : لا ينكر أن يظهر السحر على يد الساحر خرق العادات ، بما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق بين المرء وزوجه ، وزوال عقل وتعويج عضو إلى غير ذلك . مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدرات البشر .. ولا يبعد في السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يدخل في الكوات والخوخات والانتصاب على رأس قصبه والجرى على خيط مستدق والطيران في الهواء والمشى على الماء وركوب كلب وغير ذلك ، ومع ذلك فلا يكون موجباً لذلك ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولداً ولا يكون الساحر مستقلاً به ، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر كما يخلق الشيع عند الأكل والرى عند شرب الماء .. ويجب أن نعلم مع ذلك أن الله لا يفعل معجزات

الأنبياء عند إرادة الساحر ذلك ، فلا يفلق البحر ، ولا يقبل العصا ، ولا يحيى الموتى ، ولا ينطق الأعجمي .. فالذى يحدث من الساحر متميز عن المعجزة فالسحر يوجد من الساحر وغيره وقد يقع من جاعة يعرفونه ويأتون به في وقت واحد أما المعجزة فشرطها اقتران دعوى النبوة والتحدى بها .

واختلف الفقهاء في حكم المسلم والذمي فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يقتل .. ولا يستتاب ولا تقبل توبته . لأن الله سبحانه سمي السحر كفراً بقوله : (وما يعلنان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر) ، وهو قول أحمد بن حنبل ، وأبي ثور ، وإسحاق ، والشافعي ، وأبي حنيفة .. وإن كان الكلام الذي سحر به ليس بكفر لم يجز قتله ، فإن كان أحدث في المسحور ، جناية توجب القصاص ، اقتصر منه إن كان عمد ذلك وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك .. ونحن نؤكد أن دماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف .

وروى عن الشافعي : لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول تعمدت القتل ، وإن قال لم أتعمد لم يقتل وكانت فيه الدية كقتل الخطأ ، وإن أضربه أدب على قدر الضرر .

واحتج أصحاب مالك : بأنه لا تقبل توبته لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق ، واختلفوا هل يسأل الساحر حول السحر عن المسحور فأجازه سعيد بن المسيب على ما ذكره البخاري ، وكرهه الحسن البصري . وقال الشافعي : لا بأس بالنشرة .. قال ابن بطال : وفي كتاب وهب ابن منبه أن يأخذ سبع وورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضره بالماء ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

حقيقة الإنسان - ٤

وقد أنكر المعتزلة الشياطين والجن ولكن الشرع نص على ثبوته . وسورة الجن تقضى بذلك ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .. والسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة في حال طمثن .

الكهانة (١٤)

وأما الكهانة فهي أيضاً من خواص النفس الإنسانية ، وذلك أنه قد تقدم لنا في جميع ما مر أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها ، وأنه يحصل من ذلك نحة للبشر في صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك ، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور ، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر ، وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجوداً في الطبيعة البشرية ، فيعطى التقسيم العقلي أن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينها ، فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك ، وهي ناقصة عنه بالجيلة ، فيكون لها بالجيلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة ، كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام ، وما سنح من طير أو حيوان فيستديم

(١٤) مقدمة ابن خلدون .

ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذى يقصده ،
 ويكون كالشيع له وهذه القوة التى فىهم مبدأ لذلك الإدراك هى الكهانة ،
 ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها فى
 الجزئيات أكثر من الكلّيات ، ولذلك تكون الخيلة فىهم فى غاية القوة لأنها آلة
 الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تاماً فى نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عتيدة
 تجزئها الخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً ، ولا يقوى الكاهن على الكمال
 فى إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف
 أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشغل به عن الحواس ويقوى
 بعض الشىء على ذلك الاتصال الناقص فيهبس فى قلبه عن تلك الحركة والذى يشيعها
 من ذلك الأجنبى ما يقذفه على لسانه ، وربما صدق ووافق الحق وربما كذب
 لأنه يتم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم ، فيعرض له
 الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثقاً به ، وربما يفرغ إلى الظنون
 والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وعموماً على السائلين ،
 وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان ، لأنهم أرفع سائر
 أصنافهم . وقد قال عليه السلام فى مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع محتصاً
 بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار
 كيف يأتيك هذا الأمر؟ قال : يأتينى صادقاً وكاذباً . فقال خلط عليك الأمر ،
 يعنى أن النبوة خاصتها الصدق ، فلا يعترها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات
 النبىء بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى ، والكهانة لما احتاج صاحبها
 بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلية فى إدراكه
 والتبست بالإدراك الذى توجه إليه فصار مختلطاً بها وطرقه الكذب من هذه
 الجهة فامتنع أن تكون نسوة وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى

السجع أخف من سائر المُعَيَّبات من المرثيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء ، (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن ، والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه أيضاً . فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرّج عند وجود الشمس لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفي معه كل نور ويذهب ، وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لا بدّ له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه وهو معنى الكاهن على ما قررناه ، فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة ، فلا يوجد منها شيء بعد (وهديناه) على أن بعض الوضع الفلكي يقتضى بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئاً لأنه يقتضى ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه ، ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق

النبي ودلالة معجزته ، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ، ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوة فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ولسليمة وغيرهم ، فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان ، كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان .

العرافون (١٥)

ثم إننا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم ، يتميز بها صفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها وإنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الخنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقي على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة . ونحن الآن نتكلم على هذه الإدراكات كلها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة، في أن

(١٥) مقدمة ابن خلدون .

النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها، وذلك أنها ذات روحانية، موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات، كما ذكرناه قبل، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله ، وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل ، فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ، ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركاتها المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية . فتتعقل الصورة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل فتم ذاتها وتبقى النفس كالهَيُولَى ، والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما ، وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية.. وإدراك بذاتها من غير واسطة، وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبسواغلها، لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر ، مثل الكهانة أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملائكة الأعلى لما بين أفاقها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما قرناه قبل ، وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر ، فيتجل فيها شيء من تلك الصورة تقتبس منها

علوماً وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم
 يراجع الحس بما أدركت ، إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به ، هذا هو شرح
 استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي ولترجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه
 (فأما) الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان
 وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالخصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان ،
 إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم ، لأن الكاهن لا يحتاج في رفع
 حجاب الحس إلى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في
 نوع واحد منها وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه
 الذى يخبر به عنه ، ربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة
 وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ويبدو
 فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب ، كأنه غمام يتمثل فيه صور هي مداركهم
 فيشرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نبي أو إنبات ، فيخبرون
 بذلك على نحو ما أدركوه ، وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور ، فلا يدركونه في
 تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك ، وهو نفساني ليس
 من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف ، ومثل
 ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء
 والطساس وأمثال ذلك ، وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط
 ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك ، ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة
 في الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة ، وغيبة
 هؤلاء عن الحس أخف من الأولين والعالم أبو الغرائب ، وأما الزجر فهو
 ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغييب عند سماع طائر أو حيوان والفكر
 فيه يعد مغيبة ، وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من

مرئى أو مسموع وتكون قوته الخيلة كما قدمناه قوية فيبيعها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما كما تفعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس المرئى في يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا وأما المجانين فنفسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم غالبا وضعف الروح الحيوانى فيها فتكون نفسه غير مستفرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية أخرى شيطانية تشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فإذا أصابه ذلك التخبط أما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه جملة فأدرك لمحّة من عالم نفسه وانطبق فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير إرادة النطق وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال وإن فقدوا الحس إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك . وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الأمور) وقد تكلم عليها المسعودى في مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا إصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الإدراكات التى ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفرعون إلى الكهان فى تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم فى الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم وفى كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم فى الجاهلية شق من أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان

وكان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال :
فقلت لعراف اليمامة داوئي فانك إن داويتني لطيب
وقال الآخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد، إن هما شفياني
فقالا شفاك الله والله مالنا • بما حملت منك الضلوع يدان
وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الأبلق الاسدي (ومن هذه
المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسة بالنوم من
الكلام على الشيء الذي يتشوف إليه بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد ولا يقع
ذلك إلا في مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم
كأنه مجبول على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين
عند مفارقة رعوسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض
الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرفوا من كلامهم عند القتل
عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع وذكروهم مسلحة في كتاب الغاية
له في مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل في حن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين
يوماً يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق وشئون رأسه
فيخرج من ذلك الدهن ، فحين يحف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسأل عنه
من عواقب الأمور الخاصة والعامه وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة ، لكن
يفهم منه عجائب العالم الإنساني ، ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك
الغيبى بالرياضة ، فيحاولون بالمجاهدة موتاً صناعياً أياماته جميع القوى البدنية ثم
محو آثارها التي تلونت بها النفس ، ثم تغذيتها بالذكر لترداد قوة في نشتها ويحصل
ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ، ومن المعلوم على القطع أنه إذا نزل الموت
بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعلمها فيحاولون ذلك

بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت مايقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات ،
من هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على
المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً
خصوصاً بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة
كثيرة والأخبار عنهم في ذلك غريبة .

المنجمون (١٦)

وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس ،
فمن المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك
وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ، ويتأدى من
ذلك المزاج إلى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء ، إنما هي
ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثيرات النجومية ، وحصول المزاج منه
للهواء مع مزيد من حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم
كما قاله بطليموس ، ونحن نبين بطلان ذلك في محله إن شاء الله ، وهو لو ثبت
فغايبته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه في شيء ، ومن هؤلاء قوم من العامة
اتخذوا استخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى
المادة التي يضعون فيها عملهم ، ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط
أشكالاً ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها
فيها ، فكانت ستة عشر شكلاً ، لأنها إن كانت أزواجاً كلها أو أفراداً كلها
فشكلان ، وإن كان الفرد فيها في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وإن كان
الفرد في مرتبتين فستة أشكال وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت

(١٦) مقدمة ابن خلدون .

ستة عشر شكلا ، ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس شأن
 الكواكب ، وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعية بزعمهم ، وكأنها البروج الاثنا عشر
 التي للفلك والأوتاد الأربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً ودلالة على
 صنف من موجودات عالم العناصر يختص به ، واستنبطوا من ذلك فتاً حاذوا به
 فن النجامة ونوع قضائه ، إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما
 زعم بطليموس ، وهذه إنما مستندها أوضاع تحكيمية وأهواء اتفاقية ولا دليل
 يقوم على شيء منها ، ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة في العالم ،
 وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليها شأن الصنائع كلها ،
 وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله ﷺ كان نبيا يخط فن وافق خطه
 فذاك ، وليس في الحديث كان نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك الخط
 ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء فن وافق خطه ذلك النبي
 فهو ذاك أى فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذى
 كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرداً من
 غير موافقة وحى فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم . فإذا أرادوا استخراج مغيب
 بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد
 المراتب الأربعة ، ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجىء ستة عشر سطوراً ، ثم
 يطرحون النقط أزواجاً ويضعون ما بقى من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبته
 على الترتيب فتجىء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة
 أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذى
 ييازائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد ، فتكون ثمانية أشكال موضوعة في
 سطر ، ثم يولدون من كل شكلين شكلاً تحتهما باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة
 من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها ، ثم يولدون

من الأربعة شكلين كذلك تحتها ، ثم من الشكلين شكلاً كذلك تحتها ، ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلاً يكون آخر الستة عشر ، ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعادة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكماً غريباً ، وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين ، وهى كما رأيت تحكم وهوى ، والتحقيق الذى ينبغى أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح ، ولذلك يسمى المتجمون هذا الصنف كلهم بالزهرين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم فى أصل مواليدهم على إدراك الغيب فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من أهل هذم الخاصة وقصد بهذه الأمور التى ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما ، فهو من باب الطرق بالخصى والنظر فى قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة ، كما ذكرناه ، وإن لم يكن كذلك وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل ، والله يهدى من يشاء ، والعلامة لهذه الفطرة التى فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبي أنهم عند توجههم إلى تعرف الكائنات يعترهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتناوب والنمط ومبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب فى شيء وإنما هو ساع فى تنفيذ كذبه .

حساب الحروف وعلم اليازجة^(١٧)

ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذى هو من مدارك النفس الروحانية ، ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذى يحاول عليه العرافون ، وإنما هى مغالط يجعلونها كالمصايد لأهل العقول المستضعفة ، ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص ، فمن تلك القوانين الحساب الذى يسمونه حساب النيم وهو مذكور فى آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو يعرف به الغالب من المغلوب فى المتحاربين من الملوك ، وهو أن تحسب الحروف التى فى اسم أحدهما بحسب الجمل المصطلح عليه فى حروف أبجد من الواحد إلى الألف آحاد أو عشرات ومئين وألوفاً ، فإذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فأحسب اسم الآخر كذلك ، ثم اطرح كل واحد منها تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقيّة هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين ، فإن كان العددان مختلفين فى الكمية وكانا معاً زوجين أو فردين معاً ، فصاحب الأقل منها هو الغالب وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً ، فصاحب الأكثر هو الغالب وإن كانا متساويين فى الكمية وهما معاً زوجان ، فالغلوب هو الغالب وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب .

ثم وضعوا لمعرفة ما بقى من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم فى طرح تسعة ، وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد فى المراتب

(١٧) مقدمة ابن خلدون .

الأربع فكان منها كلمة رباعية وهي أيقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر حروف أبجد ، فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي بكر ، ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك إلى آخر حروف أبجد ، وصارت تسع كلمات. نهاية عدد الآحاد وهي أيقس بكر جلس دمت هنت وصح زعد حفظ طصغ مرتبة على توالي الأعداد ، ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته ، فالواحد لكلمة أيقش ، والاثنان لكلمة بكر ، والثلاثة لكلمة جلس وكذلك إلى التاسعة التي هي طصغ ، فتكون لها التسعة ، فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أى كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلا من فروق الاسم ، فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فصل عنها وإلا أخذوه كما هو ، ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه ، والسر في هذا القانون بين ، وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد يطرح تسعة إنما هو واحد ، فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة ، فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان ، وكذلك الثلاثة والثلاثمائة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة ، فوضعت الأعداد على التوالى دالة على أعداد العقود لا غير ، وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف^(١٨) وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائبا عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين . فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه ، هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم ، وكان بعض من

(١٨) قوله والألوف به نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد على الألف كما سبق في كلامه .

لقيناه من شيوختنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتواليه
كتواليها ، ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء ، وهى
هذه : ارب يسقلك جزلط مدوص هف تحذن عش خغ ثضنط تسع كلمات على
توالى العدد ولكل كلمة منها غدها الذى فى مرتبه فيها الثلاثى والرابعى والثنائى
وليست جارية على أصل مطرد كما تراه ، لكن كان شيوختنا ينقلونها عن شيخ
المغرب فى هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس
ابن البناء ، ويقولون عنه إن العمل بهذه الكلمات فى طرح حساب النيم أصح
من العمل بكلمات ايقس اعلم كيف ذلك ، وهذه كلها مدارك للغيب غير
مستندة إلى برهان ولا تحقيق ، والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزو
إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان ، يشهد
لك بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرسوخ اهد ومن هذه القوانين الصناعية
لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة إلى
أبى العباس سيدى أحمد السبتي من أعلام المتصوفة بالمغرب كان فى آخر المائة
السادسة بمراكش ، ولعهد أبى يعقوب المنصور من ملوك الموحدين ، هى غريبة
العمل صناعة ، وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف
الملغوز ، فيحرضون بذلك على حل رمز وكشف غامضه وصورتها التى يقع
العمل عندهم فيها دائرة عظيمة فى داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر
والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم ، وكل دائرة
مقسومة بأقسام فللكها ، أما البروج وأما العناصر أو غيرهما وخطوط كل قسم
مارة إلى المراكز ويسمونها الأوتار ، وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة ،
فنها برشوم^(١٩) الغبار المتعارفة فى داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم

-- (١٩) قوله برشوم أى موضوعة بضم الراء جمع بالشين المعجمة ا هـ .

ومواضع الأكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكرر البيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض ومائة واحد وثلاثين في الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الخالية وحفا في الزايرة أبيات من عروض الطويل على روى اللام المنصوية تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرة ، إلا إنها من قبيل الألغاز في عدم الوضوح والجلء ، وفي بعض جوانب الزايرة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء إشبيلية كان في الدولة اللتونية ونص البيت .

سؤال عظيم الخلق حرت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلاً وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرة .

الحسد

هل هو ظاهرة روحية؟ وتفسيره في تفاسير

القرآن وكلمة العلم الحديث

وردت كلمة الحسد في القرآن خمس مرات حيث يقول تعالى :

(ومن شر حاسد إذا حسد) آية ٥ من سورة الفلق (حاسد - حسد)

(فسيقولون بل نحسدوننا) آية ١٥ من سورة الفتح .

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) آية ٥٤ من سورة النساء .

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من

عند أنفسهم) آية ١٠٩ / البقرة

كان الرسول ﷺ يتعوذ بالمعوذتين ويحضر أصحابه قائلاً .. فما تعوذ متعوذ بمثلها. وروى النسائي عن عبد الله قال : أصابنا طش وظلمة .. فخرج رسول الله ﷺ ليصلي بنا فقال قل . فقلت ما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثاً يكفك كل شيء . « . وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها . (ينفث أى ينفخ ليس معه ريق) .

وثبت في الصحيحين من حديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ سحره يهودى من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله ، فكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله قد أفئاني فيما استفتيته فيه ، أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال : (الذى عند رأسي للذي عند رجلي) ما شأن الرجل ؟ قال مطبوب (مسحور) قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد ابن الأعصم قال : فيما ذا ؟ قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة بر ذى أروان ، فجاء البر واستخرجه . انتهى الصحيح .

ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر فأخرجوا الجف من البر ، فإذا مشاقة رأس إنسان وأسنان من مشط وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد . وأمر أن يتعوذ بهما ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد النبي ﷺ خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فكأنما أنشط من عقال وقام ليس به بأمس ، وجعل جبريل يرقى رسول الله ﷺ فيقول : باسم الله أرقيك من كل شيء

يؤذيك ومن شر حاسد وعين والله يشفيك . فقالوا : يا رسول الله ألا نقتل الحبيث . فقال ﷺ : أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على الناس شراً .. والحسد هو تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها وأما المنافسة وهي الغبطة هي تمنى مثلها وإن لم تنزل . فالحسد مذموم والغبطة مباحة . وروى أن النبي ﷺ قال : « المؤمن يغبط والمنافق يحسد » وقال ﷺ : « إذا حسدت فلا تبغ » والحسد أول ذنب عصى به الله في السماء حين حسد إبليس آدم ، وأول ذنب عصى به الله في الأرض حين حسد قابيل هابيل .
والحاسد عدو نعمة الله . قال بعض الحكماء بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه .

أحدها : أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره .

ثانيها : أنه ساخط لقسمة ربه كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟
وثالثها : أنه ضاد فعل الله أى يجمل بفضل الله .

ورابعها : أنه خذل أولياء الله بتمنيه زوال النعمة عنهم .

وخامسها : أنه أعان بحسده عدوه إبليس .

وروى أن النبي ﷺ قال : ثلاث لا يستجاب دعاؤهم : آكل الحرام ، ومكثر الغيبة ، ومن كان في قلبه غل أو حسد للمسلمين .

والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . قال الحسن : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد . وقال عبد الله بن مسعود : لا تعادوا نعم الله . قيل له : ومن يعادى نعم الله ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وجاء في صحيح الحديث قول الرسول ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو

نفقه في سبيل الله آناء الليل وآناء النهار».

ونود أن نشير هنا إلى بعض المعاصرين من أبناء هذا الجيل ، برغم ما سبق ذكره من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة ، الذين لا يؤمنون بالحسد اعتقاداً منهم أنه خرافة ، ولكن العلم الحديث قد أيد صحة ظاهرة الحسد والروحية الحديثة^(٢٠) تؤكد أن الحاسد شخص يمتلك قوى غامضة في مكنته أن يستخدمها في الخير أو الشر على السواء ، وكلما كان استخدامه لها في الشر نمت لديه تلك القوى المدمرة وازداد أثرها . ومع ذلك فإن الحاسد سرعان ما يشيد حوله أسواراً من قواه الروحية بحيث يضعف من آثار النظر الشرير ، ويسر من شرها حتى دون علم من المحسود نفسه . شأنها في ذلك شأن كرات الدم الحمراء التي تثور إذا ما غزا الجسم بكتريا معدية فتهاجمها حتى تقضى عليها أو تهلك دونها . ويروى الرواة حالات كثيرة يرى فيها أثر الحاسدين واضحاً جلياً ولكن الملاحظ أن قوى الجسد الشريرة إذا أطلقت من عقالها كثيراً ما تعود على الحاسدين أنفسهم كالقذائف ترتد إلى مطلقها .

ولقد خطب الدكتور ران بجامعة كورتل في مجمع تقدم العلوم الأمريكي بمدينة سيراكوز فقال : إنه قام بالتجارب العلمية الدقيقة فثبت له فيها أن العين البشرية إذا حدثت في خلايا الحميرة فإن تلك الخلايا تتلف ، لأن أشعة خفية غير منظورة تبعث منها وتؤثر في الخلايا كما تبعث الأشعة فوق البنفسجية من بعض المصادر وتؤثر في النبات والإنسان والحيوان على وجه معلوم .

كما قام بعض علماء الغرب ببعض التجارب على نباتات تنمو في أوعية ، بحيث يخصصون إناء معيناً ليحظى بعطف خاص وتمنيات طيبة من صاحبها ،

(٢٠) من مقال بعنوان (العين والحسد بقلم الاستاذ حسن عبد الوهاب - مجلة الروح مارس سنة

على حين يهمل الآخر . فوجد أن الإناء الأول ازدهر نباته وأينع وذبل الثاني وذوى . ولأمر ما قاله رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم عن أبي هريرة وابن عباس « العين حق ولو كان شيئاً سابق القدر سبقته العين » .

كما روى الترمذى أنه عليه الصلاة والسلام كان يتعوذ من عين الإنسان ، ولذلك قال العلامة ابن حجر : إن العين نظر باستحسان مشوب بمحسب خبيث الطبع يحصل للمنظور فيه ضرر . وقال غيره من علماء الإسلام : إن الحسد جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن فتتصل بالمعيون وتتخلل مسام جسمه فيخلق البارئ الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عن شرب السموم .

وقد شرح ابن حجر هذه العملية بتوسع فقال : إن الله قد أجرى العادة بوجود كثير من القوى والخواص فى الأجسام والأرواح كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتمسه من الخجل ، فىرى فى وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك ، وكذا الأصفر عند رؤية من يخاف وكثير من الناس يسقم بمجرد النظر إليه وتضعف قواه ، وكل ذلك بواسطة ما يخلق الله تعالى فى الأرواح من التأثيرات ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلى العين وليست هى المؤثرة وإنما التأثير للروح . وربما بدت هذه الظاهرة واضحة فى صيد القط للفأر ولو كان فى مكان بعيد أصابه الشلل ووقف مكانه لا يبرح ويلعب به ، فيقذفه ويتلقفه بالأخرى دون أن يستطيع حراكا تحت تأثير مغناطيسية نظراته .

يقول ابن القيم إن العائن والحاسد يشتركان فى أن كل واحد منها تكيف نفسه ويتوجه نحو من يريد إيتاءه فتؤثر فى المعيون .

كما قال الشيخ الشعرانى فى الجواهر والدرر أنه سأل شيخه أو تقتل الهمة من غير إحساس ؟ فقال نعم يجمع صاحب الهمة همته ويحضر نفسه على من يريد تنفيذ همته فيه على وجه الحفاقة به فيقتله من شدة ازدرائه للمقتول . بل لو جمع

تمته على انتقال شيء من أجرام العالم والأرواح انتقل إليه كما أراد .
وقد أثبت علم « الراديستيرية » أن الأجسام السليمة ينبعث منها أشعة مستقيمة لا عوج فيها ، وأنه في حالة اعتلال الصحة تنفوس هذه الأشعة بحيث إذا جلس صحيح البدن بجوار المريض أثرت أشعة المريض المتفوس على الأشعة المستقيمة للسليم بحيث تحنها وتسبب له المرض ، ولذلك ينهى هذا العلم عن جلوس السليم بجوار المريض فترة طويلة ، كذلك مجالسة الفتى للمسن ، فإن الأشعة المتفوسة الصادرة من المسن تؤثر على أشعة الفتى المستقيمة ولعل في هذا التفسير معنى واضحاً للنهى عن زواج المسن بالفتاة الصغيرة أو المسنة بالشاب الصغير ، كما يبين أيضاً أسباب العدوى بالمرض أى انتقال المرض من المريض إلى السليم .

ولقد أصبح للأشعة الحيوانية أو المغناطيسية الحيوانية كما يسمونها نظريات ثبت صحتها ، وأصبح لذوى الخبرة باستعمالها أفعال تبعث على الدهشة إذ قد تعرض بعض علماء الغرب لهذه النظريات بتوسع وقالوا : إن بعض المعالجين في الشرق « الصوفيون المسلمون » يستطيعون أن ينقلوا الأمراض إلى غيرهم وهذا يبين مدى القوى الروحية التى يملكونها . وقال هؤلاء الباحث أن هؤلاء المعالجين عند رغبتهم فى أداء هذا العمل يفرغون عقولهم تفريراً تاماً ثم يركزونها على تصور آلام المريض ، بحيث تنتج ظروفاً مماثلة لما يشكو منه المريض نفسه ثم يسحبون المرض خلال الأشعة المنبعثة من جسم المريض حيث يوجهونها كيف شاءوا .

روى أحمد فى مسنده أن النبى ﷺ خرج ومعه نفر نحو ماء حتى إذا كانوا بشعب الحزار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف وكان أبيض حسن الجلد والجسم ، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال : ما رأيت كالسيوم ، ولا جلد عذراء

فوعك سهل مكانه واشتد وعكه فأتى الرسول عليه السلام . فقال : هل تهمون به من أحد ؟ قالوا عامر بن ربيعة فدعاه وتيقظ عليه : وقال علام يقتل أحدكم أخاه هلا إذا رأيت ما يعجبك دعوت له بالبركة .
وقال القرطبي « لو أتلّف العائن شيئاً ضمنه ولو قتل فعليه الدية أو القصاص »

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم أنه ينبغي للإمام منع العائن من مداخلة الناس وأن يلزم بيته ، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذي أمر عمر بمنعه من مخالطة الناس ومن الثوم الذي منع الشارع آكله من حضور الجماعة .

ونحن^(٢١) نعتقد بصحة كل ما جاء به القرآن وورد في السنة ونترك العلم باجهاداته ليؤكد صحة اعتقادنا به بعد ألف وأربعمائة عام من الاجتهاد الدءوب في تفسير التنزيل الحكيم ، فإذا اتفق العلماء مع الدين أصابوا .. وإن أخطأوا فن قصور نظرياتهم .

التنويم^(٢٢)

لقد أعطى جيمس بريد اسم التنويم Hypnosis لعملية التنويم عام ١٨٤١ مع أنه سبق في استعمال الطريقة وفي وصفها . ومنذ إعطاء التسمية قام الكثيرون باللجوء إلى فن التنويم لأغراض علاجية وتشخيصية ومسرحية ، على أن استعمالها في الأوساط الطبية ظل محدوداً لا ينال إلا القليل من التشجيع بسبب ما اتصل

(٢١) المؤلفان .

(٢٢) النفس - د / على كمال - الدار الشرقية للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٧ - الطبعة الأولى .

باسم التنويم المغناطيسى من صفة سحرية ، وبسبب عدم التوصل إلى تفسير علمى لمظاهر عملية التنويم .

وفى السنوات الأخيرة أجازت الهيئات الطبية المختصة فى بريطانيا إمكانية استعمال التنويم للأغراض الطبية ، وأيدت فائدة التنويم فى تشخيص وعلاج بعض الحالات المرضية . على أن الأساس العلمى للتنويم من الناحية الفيزيولوجية العصبية ما زال بعيداً عن التقرير القاطع ، وكل ما نعلمه أن عملية التنويم تتم عن طريق الإيحاء المباشر ، يقوم به الشخص الذى يوحى على الشخص الذى يوحى إليه ، ويكون هذا الأخير قابلاً للتأثر بالإيحاء وفى ظروف ملائمة لعملية الإيحاء . ونتيجة هذا التأثير الإيحائى تحدث فى الشخص حالة من تصدع الوعى تشبه حالة البهران . وفى هذه الحالة ينحصر انتباه الشخص الخاضع للتنويم بالشخص الذى نومه ، ويطيع أوامره طاعة سلبية إلا فى الأمور التى تناقض مثله وضميره ، ويمكن بواسطة عملية التنويم إحداث حالات من النسيان والتذكر والشلل الحركى ، وفقدان الأحاسيس ، والنكوص أو الرجوع إلى مظاهر سلوكية وعاطفية وفكرية اتصف بها الفرد فى سنوات سابقة من حياته وطفولته .

العلاج النفسى بالإيحاء والتنويم

معظم الوسائل العلاجية من مادية وغير مادية تحمل تأثيراً إيحائياً نفسياً ، وهناك قابليات مختلفة لتقبل الإيحاء عند المرضى ، بما فى ذلك التباين فى أسلوب الإيحاء المناسب للحالة المرضية الواحدة كما أن عملية الإيحاء بحدودها وأساليبها المختلفة تعتمد على الجو الذى يحدث فيه الإيحاء كما تعتمد على شخصية الطبيب

الذى يقوم بهذه العملية الإيجابية .
ولعملية التنويم فوائد متعددة فيما إذا طبقت بحذر وفي الحالات الملائمة
لتطبيقها ، وأكثر فوائد التنويم تأثيره في الحالات المرضية المستيرية ، كما تأكدت
فائدته في علاج بعض الأمراض النفسية الجسمية كمرض الربو .
وقد تستعمل مواد عقاقيرية لتغيير درجة وعى المريض ولتسهيل إظهار بعض
الذكريات غير الواعية أو لتشجيع المريض على البوح ببعض الأفكار أو
العواطف المرعبة ، والتي لا يستطيع الإفشاء بها بصراحة وحرية في الأحوال
الاعتيادية . ومن هذه العقاقير حقن في الدم أو بعض مواد كحولية مخدرة ، فإذا
تناولها المريض حدث ما يسمى بالتنفيس لما في نفسه من ضيق عاطفي مكبوت .

خاتمة الكتاب

ما هي الروح؟ (٢٣)

شئ مبهم غامض ليس له حدود . وهذا الإبهام في طبيعة الروح والغموض الذى يحيط بها والعجز عن إدراك كنهها هو الذى أغرى الماديين في العصور الحديثة أن يهملوها إهمالا ويسقطوها من الحساب .

إذ كل ما لا تراه الحواس - في نظرهم - غير موجود .. والروح لا ترى بالحواس فهى إذأشئ ليس له وجود .

ولكن الدوس هكسلى يرد عليهم في هذا الأمر- برغم أنه لا يؤمن بالدين - فيذكرهم بحقيقة بنسونها وهم يجادلون : (إنه ليس لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزود بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس . وإن جهلنا بالطريقة التى يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له .. فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التى تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر . من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك ؟ أو التذكر ؟ وكذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف ولكنه ، برغم ذلك حقيقة علمية) . إن الدوس هكسلى لا يسير معنا الطريق كله ولكنه يسير نصف الطريق، فهو يقرر أن هناك طاقة مجهولة في الإنسان يقدر بها على الاستشفاف ويقرر كذلك أن جهلنا لكنه هذه الطاقة لا يعنى أنها غير موجودة في الواقع . . فهى موجودة برغم هذا الجهل .. وهى حقيقة علمية .. وأهم من ذلك أنه يقرر أننا اعترفنا

(٢٣) منهج التربية الإسلامية - عمد قطب الطبعة الثانية - دار القلم .

من قبل بوجود طاقات بشرية أخرى برغم أننا نجعل كنهها تمام الجهل كعملية الإدراك وعملية التذكر .. وذلك نصف الطريق .. فهكسلى يقصر هذه القدرة على الاستشفاف ثم يقصرها على (بعض) الناس فقط ولا يجعلها طاقة (بشرية) أصيلة .

ولكن حين ينظر الإنسان إلى الاتجاه المادى الغارق فى المادية الذى يسيطر على تفكير الغرب ومشاعره يجد أن هذا الاعتراف من رجل لا يؤمن بالعقيدة .. يعد فى الواقع تقدماً كبيراً نحو الفهم الصحيح للإنسان الفهم الذى قرره العقيدة منذ أقدم الأزمان ..

فالروح طاقة مجهولة .. مبهمة .. غامضة .. محجوبة عن الإدراك .. ومع ذلك فهى حقيقة وإذا كنا نظن أن عملية الإدراك أو عملية التذكر عملية (محسوسة) ومن أجل ذلك نؤمن بوجودها الواقعى فتحن مخطئون فى هذا الظن فهى فى الحقيقة ليست محسوسة فى ذاتها وإنما نحن ندرك نتائجها .. ووضوح الإحساس بنتائجها هو الذى أغرانا بذلك الظن الخاطى كما أنه هو الذى أدخل فى وهما أننا (نعرف) كيف يتم الإدراك وكيف يتم التذكر .. أما الحقيقة فهى أننا لا نعرف كنه هذه العملية ولا تلك ونكتفى منها بالنتائج التى تدركها الحواس .. ولو تدبرنا الأمر لوجدنا الطاقة الروحية كذلك .. إنها مجهولة فى كنهها مبهمة غامضة محجوبة عن الإدراك ولكن نتائجها ليست مجهولة ولا محجوبة عن الإدراك ..

ونحن لو حاولنا أن نعرف عملية التذكر فلن نجد إلا لفظة واحدة نشرحها بها ، سنقول إنها عملية التذكر ولو حاولنا أن نعرف عملية الإدراك فلن نجد إلا اللفظة ذاتها أو ما يرادفها وسنقول إنها عملية الإدراك . ولكننا سنقول عن

الروح : إنها الطاقة التي يتصل بها الإنسان بالجهول بالغيب المحجوب عن الحواس .

(الاستشفاف) عملية من عمليات الروح .

(الحلم التنبؤى) عملية من عمليات الروح .

والتخاطر عن بعد (التليثائى) عملية من عمليات الروح . (كحادثة عمر

الشهيرة مع سارية) ..

وهي كلها عمليات جليلة عظيمة باهرة معجزة .. يقف الإنسان حائراً أمامها مبهوتاً من العجب والإعجاب ولكنها مع ذلك عمليات جانبية .. إنما الوظيفة الكبرى للروح هي الاتصال بالله . كيف يتم هذا الاتصال ؟ كيف يتم التليثائى والاستشفاف التنبؤى ؟ لا ندري . كما أننا لا ندري كيف يتم الإدراك والتذكر ولكنه يتم على أى حال .

الروح : تلك الطاقة المجهولة التي لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها .. هي وسيلتنا للاتصال بالله .. وهي مهتدية إلى الله بفطرتها .. إنها من روح الله التي أودعها قبضة الطين . (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) ومن ثم فهم بذاتها تهتدى إلى خالقها وتتصل به على طريقته .. (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) تهتدى إليه كما يهتدى كل شيء من خلق الله بعظمته دون كد ولا تعب ولا جهد في الاهتداء .. (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) كل ما فى الأمر أن الله قد كرم هذا المخلوق البشرى : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) ومن آيات هذا التكريم أن جعل للإنسان قواداً واعياً : (وجعل لكم

السمع والأبصار والأفتدة) فجعل عملية الهدى عملية واعية يشترك فيها الفؤاد البصير، فتفترق بذلك عن الطاعة التي يمارسها الجهاد والنبات والحيوان .

ومع ذلك فالإنسان يضل .. يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض .. يضل فلا يتهدى إلى الله ولا يصل بروحه إليه .. ولا يستمد منه .. ولا يلجأ إلى حياه ..

على أنه حتى حين يضل « حين تتغيب روحه فلا تستطيع أن تشف .. حين يغشها ركام الشهوات فيحجب عنها النور .. حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة - برغم ضلالها تنجح إلى خالقها .. كما تنجح العين الكليية إلى الضوء .. لا تراه كله ولكنها لا تعمى عنه .. فيعبد الناس الله .. ويشركون به غيره من الكائنات (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .. (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله) أو يعبدون قوة - ما يزعمون أنها الله) ولكنهم فيما عدا الشذوذ الذي لا يجب له حساب - لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون قوى مسيطر مرید .. ومهمة العقيدة هي مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها .. مهمتها أن تساعد الفطرة في الاهتداء إلى الله .. الاهتداء الذي هو كامن في كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض .. مهمتها أن تطلق الروح من إسارها .. لكي ترى الله .. والاسلام يعنى عناية خاصة بالروح .

إنها في نظره مركز الكيان البشرى ونقطة ارتكازه .. إنها القاعدة التي يستند إليها الكيان كله ويرتبط عن طريقها .. إنها المهيمن الأكبر على حياة الإنسان .. إنها الموجه إلى النور .. يكفي أنها صلة الإنسان بالله .
فالحق أن الطاقة الروحية في الإنسان هي أكبر طاقاته وأعظمها وأشدّها

اتصالاً بحقائق الوجود .

فطاقة الجسم : محدودة بكيانه المادى وبما تدركه الحواس .
وطاقة العقل : أكثر طلاقة ولكنها محدودة بما يعقل .. محدودة بالزمان
والمكان .. بالبدء والنهاية ومحكومة بالفناء .

ولكن طاقة الروح : وحدها - فى كيان الإنسان هى التى لا تعرف الحدود
والقيود - لا تعرف الزمان والمكان . لا تعرف البدء والنهاية .. لا تعرف الفناء ..
هى وحدها التى تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل . هى
وحدها التى تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان ..
كيف ؟ لا نعلم لكننا نحس .. نحس بإشراق الروح الصافية التى تشمل الحياة كلها
فى ومضة وتشمل الآباد والآماد ، .. نحس بسبحه الروح الطليقة التى تجوب
آفاق الكون وتتصل بكل حى فيه .. والكون كما يقول العلم كله حياة .. نحس
بتلك اللحظة الدقيقة العجيبة العظيمة الرائعة التى يرتعش فيها الكيان كله ونحس
فى أعماقه أنه يرى الله .

وكان طبيعياً إذن أن تهتم العقائد كلها بأمر الروح .. وكان طبيعياً أيضاً أن
يهتم الإسلام خاصة بهذه الطاقة .. وهو الذى جعل منهجه الاهتمام بالطاقات
البشرية كلها وإعطاها حقها من الرعاية والتوجيه .

وطريقة الإسلام فى تربية الروح هى أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله فى كل
لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور .

والإسلام فى واقعيته الكاملة التى تحسب حساب الضعف البشرى لا يكف
أبداً عن النفخ الدائم لإذكاء شعلة الروح ، لأن هذا هو الطريق الوحيد للرفعة
وموازنة ما يهبط بالنفس من أثقال .. والطريق كما أسلفنا هو عقد الصلة
الدائمة - عن طريق الروح - بين الله والإنسان حتى يصبح الإنسان جديراً

بعبوديته لله وحتى يكون من أصحاب النفوس المطمئنة .
(يأتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في
عبادي وادخلي جنتي) .

« انتهى بحمد الله »
ويليه الكتاب الثالث
في حقيقة النفس

١٩٨٨ / ٢٥٧٧	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٤٣٣-٢	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٣٧٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.٠)